

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

صحا امرؤ القيس بن حجر فى فجر اليوم التالى بعد إغفاءة يسيرة فى آخر الليل، فلقد كانت ليلته ساهدة مضطربة، ساورته فيها الهموم المرّة، فلم تترك له راحة فى رقادها؛ وغلبه الحزن منذ غادرته فاطمة غاضبة، ولم يقدر عن أن يصرف على أذنيه صدى ألفاظها القاسية؛ وكان أصحابه كلما بالغوا فى الاحتياىل للتسرية عنه وجدوا شجونه تزداد ضراماً، وكلما دخلوا به فى سمر خرج منه إلى نفثة مكروبة وأنه محزونة، فحاولوا تسليته بالشراب فجعلوا له الخمر صرفاً غير ممزوجة؛ ولكن الشراب لم يزرده إلا همّاً وتوجعاً وإضراراً لما به من الحزن. ولم يقدر أحد أن يستدرجه إلى الإبانة عن سرّ وجومه، فقد كان يظهر الضجر لمن يسأله عن سبب ضيقه، فكف أصحابه عن مساءلته، ويئسوا من منادمتة. وانصرفت نفوسهم عن الأنس إلى مجلسهم، وقاموا عائدين إلى منازلهم، والشمس لا تزال تخطر أول خطراتها فى الشرق بين قطع السحاب البيضاء اللامعة.

ولم يبق مع امرئ القيس بعد انصراف أصحابه إلا ربيعة بن عمرو، وكان له صديقاً، وهو رجل من بطانة أبيه الملك، كان يأنس إليه، ويحب حلاوة شعره ويحنو عليه لركة نفسه، ويعجب به لخفته فى ركوب الخيل ومهارته فى صيد الوحش.

وكان الملك حُجر قد عهد إلى ربيعة تنشئة ابنه منذ صباه وتدريبه في فنون الحرب وضروب الصيد، فكان له معلمًا وصديقًا، وطالت بينهما المعاشرة، فألقت في نفس كل منهما محبة لصاحبه، حتى كانا لا يأنس أحدهما بأحد مثل أنسه بصاحبه، ولا يحجب أحدهما عن الآخر نأمة من سر في صدره. فلما انصرف الجمع بقى ربيعة مع الفتى يريد أن يشيعه إلى خيمته، كما كان يفعل كلما اجتمعوا. وفيما كانا في سبيلهما قال ربيعة لامرئ القيس: «إن لك شأنًا منذ الليلة».

فنظر إليه الفتى بطرف ثقیل من أثر الشراب، ولكنه كان لا يزال حافظًا لوعيه؛ ولم يحاول إنكار شيء عن صديقه، بل قال في زفرة قوية: «شأن أى شأن يا ربيعة!».

فقبض الرجل على ذراعه وقال: «هل آذاك أحد إخوانك بكلمة؟ هل تجرأ أحد على ذلك؟».

فأشار امرئ القيس برأسه إشارة استخفاف ضعيفة، وقال في دفعة: «وهل كنت لأصبر على الأذى؟».

فقال ربيعة بلهجة الاعتذار: «إذًا فما الذى يحزنك؟».

فمضى امرؤ القيس يقص على صديقه قصة الفتيات، حتى بلغ ذكر فاطمة وما كان منه ومنها واعتذاره لها، وردها إياه، وجعل يردد ألفاظها الأخيرة إذ تقول: «لست على بأمين، أنت فتى داعر». وكانا قد بلغا عند ذلك فناء المنزل، فلم يشأ امرؤ القيس أن يدخل،

بل عرج مع صاحبه إلى كثيب صغير على مقربة منه، وجلس يتم له حديثه، ويروح عن نفسه بالإفاضة في وصف ألمه وندمه.

وكان ربیعة یعلم من صديقه امرئ القيس سر محبته لفاطمة، ولكنه كان یعلم كذلك أن حديث حبه لها قد شاع في الناس وتحدثوا به في مجالسهم، ورووا أشعار امرئ القيس فيها، وساروا بها في قبائل العرب يرددونها ويجعلونها مدار أسمارهم في نواديهم. فلما سمع ربیعة قصة صديقه وجم وصمت وأطرق لا یجد قولاً.

فنظر إليه الفتى بعد قليل وقال ضجراً: «أراك لا تقول شيئاً، أما من وسيلة إلى استرضائها؟».

فرفع ربیعة رأسه مسرعاً وقال في شيء من الدهشة: «إلى استرضائها؟».

فقال الفتى متعجباً من سؤاله: «وماذا ترى في أن تسترضيها عني؟ ألا تريد أن تحمل إليها ندمي واعتذاري؟».

قال هذا وأطال النظر إلى صديقه الواجم في شيء من الخضوع والتوسل...

فقال ربیعة متردداً: «لقد كنت أحب أن أكلمك في هذا الأمر منذ حين. إنني أعرف ما يقوله الناس عنكما. حقاً هي من بنى عمومتك، ولكن هذا يجعلك أولى الناس بالحرص عليها، وأبوها مما تعرف رجل من بيتك وإن كان فقيراً، فهو عامر بن معاوية ابن آكل المرار. ولن يرضى عن تماديك في التشبيب بابنته. ولقد

سمعت أنه كان منذ حين عازماً على الرحيل عن جوار أبيك، وأنت تعرف ما فى هذا من الضرر البالغ. فأبوك لا يستطيع أن يستغنى عن مثله، ولا يمكن أن يرضى عنك إذا كنت سبباً فى موجدته». فقال الفتى فى عناد: «ولكنى أحبها». فقال ربيعة فى صراحة أليمة: «تحبها؟ وهل يلهو المحب بمن يحبه؟».

فقال امرؤ القيس فى دفعة: «ألهو بها؟». فقال ربيعة: «أليس تشبيبك بها يحمل معنى العبث واللهو؟». فصمت الفتى لحظة، وقد تبين له أنه لا يقدر على دفع تهمة صديقه. فقال له ربيعة: «وأنت فوق ذلك امرؤ القيس بن حجر، ولن يرضى أبوك أن يزوجك بغير أكفائك من بنات أعمامك الملوك: معديكرب، أو سلمة، أو شرحبيل أو عبد الله بنى الملك الحارث». فقال امرؤ القيس مسرعاً: «وهى ابنة عمى كذلك، وأنا أحبها». فقال ربيعة فى قسوة: «أنت واهم، ما هى إلا نزوة من نزوات الشباب. أنت تحبها كما تحب سواها».

فثار الفتى غاضباً وقام على رجليه كأنه يريد أن يضرب خصماً، وقال فى صيحة: «كذب من قال هذا».

فقال ربيعة ملايناً: «أنت تعرف محبتى لك وشدة رغبتى فى خيرك، فلا تظن أننى أقول ما أقول إلا حرصاً عليك وتأدية لحق أبيك وآلك على».

فجلس الفتى وقال ولا يزال مهتاجًا: «أتسمى هذا العبث الذى أعبثه أحيانًا حبًّا لسواها».

فقال رببعة مصرًّا على رأيه: «أنت فى مكان ولدى وإن لم أكن كأبيك. أنا أعرف ما ينطوى عليه قلب مثلك، فإننى ما زلت رجلاً فتياً لم أفقد بعدُ شبابى. إن الذى يحب لا يستطيع أن يعبث. إنك لا تحبها، ولكنك تريد أن تفوز بها لأنها تقاومك، وتمتنع عليك. بل إنك لتعبث بها إذا استطعت».

وكان هذه الكلمات كانت طعنات مسددة إلى قلب الفتى، وأحس أن الرجل قد أهانه، فثارت عزته وتذكر أن ذلك الذى يطعنه هذه الطعنات ما هو إلا تابع له ولأبيه، فكيف يجرؤ عليه بمثل هذه القالة، وبلغ منه الغضب مبلغًا، فأفلت رأيه من زمامه، وامتلات نفسه بالكبر، وكان أثر فعل الخمر ما زال باقياً قد هزه فأضعف فيه حكم العقل، فنهض غاضبًا ودفع الرجل فى صدره بجُمع يده فألقاه على جانب الكتيب، ومضى نحو خيمته مترنحًا من الغضب، فدخل فيها واستلقى على فروة فى جانبها، وجعل يبكى ويتمرغ، ويئن أنينًا موجدًا.

قام رببعة يجر رجليه إلى بيته، وقلبه مفعم بالأشجان المتضاربة، حتى ذهب إلى خيمته، فنضا عنه ثيابه واستلقى على فرو، وجعل يفكر فيما كان بينه وبين الفتى وهو فى حيرة من أمره، أيفضى بالأمر إلى أبيه الملك حجر، أم يحاول مرة أخرى

أن يقومه بالنصيحة والرفق؟ وكانت الإهانة التي أصابته من الفتى
تثيرة وتصرفه عن محبته له حيناً، ثم لا يلبث أن يعود إلى نفسه
فيلتمس له الأعذار من نزق شبابه وحرارة قلبه.

قضى امرؤ القيس مساء الليلة بعد ذلك لا يطمئن على جنب،
ولا يستقر في مجلس، فخرج إلى الفضاء المجاور لبيته وجعل ينظر
حوله إلى القمر السارى بين السحب ويتنفس أنفاساً حارة بين حين
 وآخر، ثم اهتزت نفسه فجعل يتغنى بأبيات من الشعر أودعها
ما تختلج به نفسه من الشجون فقال:

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدلّل
وإن كنتِ قد أزمعتِ صرْمِي فأجملي
وإن كنتِ قد ساءتِكِ مني خَلِيقَةٌ
فسُلي ثيابي من ثيابكِ تَنَسَّل
أعركِ مني أن حبكِ قاتلي
وأنتِ مهما تأمرِي القلبَ يَفْعَلُ؟
وما ذَرَفْتَ عيناكِ إلا لتضربِي
بسهميكِ في أعشارِ قلبٍ مقتَل
تسلّتِ عمایاتِ الرجالِ عن الصُّبا
وليس فؤادی عن هواكِ بمنسل

ثم سكت قليلاً وجعل يتذكر ربعة وما أصابه منه، وأحس
بشيء من الندم على ما فرط منه، فلقد كان الرجل يخاصمه في فاطمة

ولا يقصد إلا خيره، وتذكر إهانته له جزاء على صداقته وإخلاصه، فزاد ألمه وأحس كأن رأسه يعصر عصراً، فجعل يهزه هزاً عنيفاً كأنه يريد أن يبعد عن خياله تلك الصورة المؤلمة، صورة دفعه لصديقه تلك الدفعة المنكرة التي ألقته طريحاً فوق الكتيب على غرة منه، ثم صورته وهو ينظر إليه عاتباً جريح القلب صامت اللسان.

حاول امرؤ القيس أن يصرف عن خياله تلك الصورة، ولكنها لم تبعد وبقيت ماثلة، تزيد الفتى ألماً على ألمه، وجعلت دموعه تجري على صفحتي وجهه وقال في صوت أجش من أثر البكاء:

ألا رب خصم فيك أَلْوَى رددته نصيح على تعذاله غير مؤتل
ثم غلبه الشجن ف قضى ساعة وهو فى نشيج مرّ. وكأن ذلك البكاء
قد خفف عن قلبه بعض الألم فتنفس نفساً عميقاً ثم رفع رأسه ونظر
حواله إلى الفضاء وقال:

وليل كموج البحر أرخى سُدولَه على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكل كل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

ثم أكب على جانب الكتيب جاعلاً رأسه على يديه. ومضى عليه
فى هذه الحال حين طويل حتى كاد الليل ينصرم، فأغفى إغفاءة
قصيرة عند وجه الفجر، ولم يلبث أن صحا منها فرأى خيوط الفجر

تنبثق من الأفق الشرقي فاترة، وتلقى على الأرض سلامًا لا يجد له صدى في نفسه.

وجال ببصره في خط الأفق جولة خالية لا يقصد بها شيئاً، فما راعه إلا أن رأى إبلا محملة تسير في اتجاه الجنوب يسمى بها رجل طويل يضرب في أكبادها يستحثها في المسير ومن ورائه فتية يسوقون الضعائن عليها هودج النساء فقام مسرعاً يسائل عن هذا الركب المبكر. وخفق قلبه إذ خطر عليه خاطر سنج سنوح البرق. أياكون هذا الركب المرتحل سائراً بفاطمة؟ أياكون أبوها قد علم بما كان منه، ولما لم يرد عداوة قومه وخشى قطيعة الملك حجر أثر أن يرحل بأهله يلتمس النجاة من العار؟ ما كاد هذا الظن يداخله حتى وثب ذاهباً نحو منازل عامر أبي فاطمة وكانت على مقربة من منازل آل حجر. فلما بلغها لم يجد بها إلا آثاراً من أثافيّ المواقد وأسوار من الطين كانت حول الخيام لتحميها أن تتسرب إليها مياه سيول الشتاء. فكاد لبه يطير، وأخذ يعدو اتجاه الأفق البعيد غير مبال ما في سبيله من حجارة تعثره، أو رمال تشق عليه؛ وما زال يجرى وهو مستطار اللب حتى كلَّ وعجز عن مواصلة العدو. فانبهر في طريقه واضطر أن يسير سيراً مضطرباً، وصدره يضيق بأنفاسه من أثر الجهد، وزاده تعباً ما كان به من أثر السهاد والهَم في الليلة السابقة.

ولكنه رأى أنه لن يستطيع أن يلحق بالركب إذا هو سار ذلك السير البطيء، وثارت نفسه عندما تصور أن الحبيبة سوف تصبح

فى ديار أخرى وتبعد عنه بعد ذلك أبداً فلا يراها. وجعل يسائل نفسه: أكون ذلك اليوم حقاً آخر عهده بها؟ أكون ذلك الموقف المزرى الذى وقفه منها آخر موقف بينهما؟ أكون آخر كلمة يسمعها منها تلك الطعنة النافذة التى رمتها بها؟ وما كاد يفكر فى ذلك حتى اندفع يجرى مرة أخرى وهو لا يكاد يجد الأنفاس، فما زال يحمل على نفسه فى العدو ويغلبها على الماضى، حتى عجز وتخاذل وخر إعياء بين شجيرات من السرو مجتمعة على جانب كثيب، ثم أغمى عليه.

لم ينم ربيعة بن عمرو تلك الليلة بعد ما ترك امرأ القيس، فظل ساهداً حتى طلع الفجر، فقام إلى رأس ربوة مجاورة ينفس عن صدره ما كان فيه من الضيق والغضب، فلما جال ببصره فيما حوله رأى شبحاً يجرى ويتعثر فى الرمال فتبينه فإذا امرؤ القيس يعدو فأتبعه بصره متعجباً أين يقصد، ثم رأى الركب المرتحل يسعى مجداً عند الأفق وامرؤ القيس يحاول الوصول إليه، فأدرك حقيقة الأمر ولكنه أحس فرحاً يدب إلى قلبه وبدأ همه يسرى عنه.

ثم رأى امرأ القيس يعجز فى الجرى، وراّه بعد ذلك يسقط خائراً، فأحس كأن طعنة أصابت قلبه. فلقد كان للفتى فى قلبه مكانة لا يدانيه فيها أحد مع كل ما بدر منه. فقام مسرعاً إلى راحلته فركبها وأسرع فى السير حتى بلغ موضع الفتى ونزل إليه، فجعل يعالجه ويدلك أعضائه حتى عاد إليه وعيه.

فتح الفتى عينيه فوقعتا على صديقه الذى آذاه، ورآه مكباً عليه وقد ارتسمت على وجهه أمارات الجزع والحزن، فحسب نفسه فى حلم وقال: «من أنت؟».

فقال ربعة فى أسى: «صديقك ربعة».

فمد الفتى يده فأخذ بيد ربعة فقبلها وأنزل عليها دموعه وقال بصوت ضعيف: «أقد رحلوا؟».

فصمت ربعة وقال كأنه يعزيه: «تجلد يا صديقى. تجلد ولا تهلك نفسك أسى».

فأعاد امرؤ القيس سؤاله وقال: «أقد رحلوا؟ أرحلت فاطمة؟». ثم وضع رأسه فوق يديه وهو مكب على الرمال وأخذ يبكى بكاء مرّاً. فتركه ربعة يمضى فى بكائه مكتفياً بأن يمسح على رأسه بيده مسحاً رقيقاً، فقد علم الرجل أن فى هذا الدمع شفاء لقلب الفتى الجريح.

بعد ساعة رضى الفتى أن يعود مع صاحبه، فساعده ربعة على الركوب وركب ردفه عائدين إلى الحى فبلغاه قبل أن تعلو شمس النهار.

وقضى امرؤ القيس بعد ذلك أياماً طريح الفراش فى حمى هدت قواه وكادت تقضى عليه. واهتزت منازل بنى أسد وغطفان لمرضه، واشتد جزع أبيه حجر عليه، فكان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً، فقد كان امرؤ القيس أصغر أبنائه وأحبهم إلى قلبه مع ما كان يسمع

من أنباء لهوه وما كان يبلغه أحياناً من شعره فإن كان الفتى يضطرب فى شبابه ويطيع فتون هواه ويترنم أحياناً بالشعر كلما طرب أو اهتز قلبه، فهو ابنه الرقيق القلب، الوديع القول، الفارس الكامل والصائد البارع السديد الرماية؛ فكان الأب لا يزال يتقرب ذهاب الصبا والفتون عن ولده الحبيب، ولا يزال يرجو أن يعود إلى الجد مع موالاة النصح العاطف والإرشاد الشفيق.

وأفاق الفتى بعد أيام طويلة، فكان أول ما وقع عليه بصره وجه أبيه الحزين، والدمع يبيل لحيته، ووجه صديقه ربعة وقد أمضه الحزن عليه وأنحله.

وعادت القوة إلى امرئ القيس رويداً حتى استطاع أن يسير وأن يركب، وأن يجالس ويسامر، وينادم وينشد، ولكنه لما استتم الشفاء لم يعد إلى طبعه الأول، ولم يسترجع نفسه الأولى الوديعه المرهفة الحس. بل قام بنفس جديدة وطبع غريب حتى وكأنه خلق بعد المرض خلقاً جديداً.
